معارضات الشعراء الأندلسيين للمشارقة والمغاربة في كتاب زاد المسافر وغرّة مُحيا الأدب السافر لأبي بحر صفوان التجيبي المرسي (ت٥٩٨هـ) - دراسة موازنة -

د. يونس طركي سلوم البّجاري
مدرس في كلية الآداب بجامعة الموصل

ملخص البحث

تناول البحث معارضات الشعراء الأندلسيين للمشارقة والمغاربة في كتاب زاد المسافر لأبي بحر صفوان، (ت ٥٩٨هـ).

وقف البحث على مفهوم المعارضة في اللغة والاصطلاح. وطرق الشعراء الأندلسيون الذين عارضوا المشارقة عدداً من الأغراض الشعرية وتمثلت بالخمرة والمجون والوصف والأخويات والرثاء والشكوى من فراق الأحبة والغزل العفيف.

أما معارضة الأندلسيين للمغاربة فقد مثلها شاعر واحد فقط، نظم في غرض الغزل بالغلمان.

وختم البحث بخاتمة تضمنت أهم النتائج.

توطئة

استكمالاً لصورة المعارضة الشعرية في كتاب زاد المسافر (*) لأبي بحر صفوان ت ٥٩٨ هـ كان لابد من الوقوف عند معارضات الشعراء الأندلسيين للمشارقة والمغاربة وخضعَ هذا الاتجاه الى نزعة الإعجاب والتقليد.

وسيطرت هذه النزعة على جل المعارضات الشعرية، منذ القرون الأولى للوجود العربي الإسلامي في الأندلس، وخفتت هذه النزعة في القرن الخامس والقرون اللاحقة، لتتوجه أنظار الشعراء الأندلسيين الى أبناء جلدتهم ليعارضوهم. إلا انهم لم يتحرروا منها

كلياً. وبقي الشعراء ينظرون الى النتاج المشرقي نظرة إعجاب واكبار كما سيتوضح ذلك من خلال المعارضات الشعرية للأندلسيين لاهل المشرق، في كتاب الزاد.

أما معارضة الأندلسيين للمغاربة فكانت بدافع المنافسة المتمثلة في رغبة الأندلسيين في التفوق على المغاربة، وكانت تغذيها روح الشحناء بين العدوتين الأندلسية والمغربية.

ويحاول البحث ان يترسم خطى الشعراء الأندلسيين ممن عارضوا المشارقة والمغاربة حصراً في كتاب زاد المسافر لانه كتاب عُني بالاختيارات الشعرية من الأندلسيين فضلاً عن إيراده لشعراء من غير الأندلس بدافع إبراز المعارضة الشعرية التي تقوم على الموازنة النقدية.

ولابد من إلمامة سريعة بمفهوم المعارضة في اللغة والاصطلاح.

المعارضة لغة

جاء في لسان العرب لابن منظور (ت ٧١١هـ) : ((... وفلان يُعارضني أي يباريني، وفي الحديث الشريف ان جبريل عليه السلام، كان يُعارضه القرآن في كل سنة وانه عارضه العام مرتين،... وفي الحديث الشريف أيضاً أن رسول الله صلى الله عليه وسلم عارض جنازة أبي طالب أي أتاها معترضاً من بعض الطريق، ولم يتبعها في منزله...)) [(١)].

مما تقدم نخلص الى أن المعنى اللغوي له طوران : الأول : حسي يتمثل في المقابلة والسير، والثاني : معنوي في القول ونحوه.

المعارضة اصطلاحاً

لعل اقدم من تحدث عن مفهوم المعارضة في الاصطلاح من الدارسين المعاصرين الاستاذ احمد الشايب – فيما أُعلم – إذ عَرّفها بقوله : ((أن يقول شاعر قصيدة في موضوع ما من أي بحر وقافية ويأتي شاعرٌ آخر فيعجب بهذه القصيدة لجانبها الفني وصياغتها الممتازة فيقول قصيدته من بحر الأولى وقافيتها، وفي موضوعها، أو مع انحراف عنه يسير أو كثير حريصاً على أن يتعلق بالأول في درجته الفنية أو يفوقه...

فيأتي بمعانٍ أو صور بازاء الأولى تبلغها في الجمال الفني أو تسمو عليها بالعمق : أو حسن التعليل أو جمال التمثيل أو فتح آفاق جديدة في باب المعارضة)) (٢).

وبعد تداول هذا المفهوم للمعارضة في الاصطلاح اجتهد دارسون آخرون(٣) مضيفين عليه ومنقصين فيه، كُلٌ حسب اجتهاده. بيد أن ما تقدم يعُد وافياً ويشير أحد الباحثين(٤) الى أن المعارضة على نوعين تامة إذا توافرت أركانها وناقصة إذا اختل فيها رُكن أو اكثر.

معارضة الشعراء الأندلسيين للمشارقة والمغاربة في كتاب زاد المسافر لأبي بحر صفوان

إنَّ من يُمعن النظر في قصائد المعارضة الشعرية في زاد المسافر يلحظ أن معارضة الأندلسيين للمشارقة والمغاربة تأتي بعد معارضة الأندلسيين فيما بينهم من حيث الكم ولعل ذلك يعود الى ثقة الأندلسيين بأنفسهم إذ غَلّبوا أبناء جلدتهم على من سواهم وقد نما هذا الشعور في القرن الخامس الهجري والقرون اللاحقة.

بيد أن هذا الأمر لم يصمد أمام قوة التأثير المشرقية، وظَلَ الشعرُ المشرقي متألقاً في سماء المشرق والمغرب معاً. وبقي المتنبي مالئ الدنيا وشاغل الناس ومعه أبو نؤاس وغيرهما من المشارقة يطبقون الآفاق، وتتناهى أشعارهم الى الأسماع، لذلك إنصاعَ أبو بحر صفوان في زاد المسافر الى سطوة التأثير المشرقية على شعر شعرائه المختارين وزيّن كتابه بشذراتٍ من أشعارهم. كما سنرى.

موضوعات معارضة الشعراء الأندلسيين للمشارقة والمغاربة

طرق شعراء هذا الاتجاه بعض الأغراض الشعرية المتداولة، وسنعرض لها حسب كثرتها في كتاب الزاد، وتصدرها شعر الخمرة والمجون والوصف والأخويات والرثاء والشكوى والغزل العفيف والغزل بالغلمان.

١- الخمرة والمجون

إزدهر شعر الخمرة والمجون في الأندلس تلبيةً لحالة الترف التي عاشها المجتمع الأندلسي على مختلف مستوياته، واخذ الشعراء الأندلسيون يعارضون الشعراء المشارقة فيه.

وتطالعنا في هذا الغرض معارضة السُلمي كاتب ابن سعد [٥] للشاعر المشرقي الاشتر النخعي (ت ٣٨هـ).

إذا قال الاشتر النخعي : (كامل)

بَقَّيْتُ وَفْرِي وانحرفتُ عن العَلا[٦] ولقيتُ أضيافي بوَجْهِ عَبوسِ
إنْ لَمْ أشُنَّ على آبن نَحس [٧] غارةً لأُبدَّ فيها من نَهابِ نفوس [٨]

عارضها السُّلمي كاتب ابن سعد : (منسرح)

أدِرْ كُؤوسَ المُدامِ والزَّزِ فقد ظَفِرْنَا بدَوْلَةِ العزّ
وَمَتّعِ الكّفَّ...... [٩] فإنهُ في ليانةِ الخَزِّ
وصاحبٍ إنْ طَلَبْتُ أخْدَعَهُ لَمْ يَكُ في بَذْلِهِ بمُعْتَزّ
أنْحى على أخْدَعي فأطربني وَهَزَّ عِطْفَيَّ أيَّما هَزِّ [١٠]

لدى الموازنة بين المُقَطّعَتين نجد أن المعارضة ناقصة لان السُّلمي قد أخلَّ بركنين من أركان المعارضة التامة، تمثل الأول في مخالفته البحر، فإذا نسج الاشتر النخعي مقطوعته على الكامل فإن السُّلمي ينسج على المنسرح، وتمثل الثاني في مخالفته لحرف الروي، فإذا اعتمد النخعي حرف السين رويا فإن السُلمي يعتمد الزاي روياً.

ويلتزم الاشتر النحعي في مقطوعته بالآداب العامة، على الرغم من انه أوحى إلى المتلقي في البيت الأول بأن يجنح في سلوكه وينحرف عن المعالي ويخرج على الحرمات ولا يُحسن معاملة الضيف، ولكنه لم يفعل شيئاً من ذلك، إنما جعلها مسوغاً له، لعهدٍ

قطعه على نفسه إنْ لمْ يشن حرباً على خصمه – معاوية بن أبي سفيان – بيد انه لا ينكر ما تتطلبه تلك الغارة من تضحيات في النفوس.

أما السُلمي فقد أساء فهم شعر الاشتر النخعي لاسيما قوله (وانحرفت عن العُلا) لذا جاءت مقطوعته حافلة بالدعوة الى الانحراف الاجتماعي المتمثل بالخلاعة والمجون، وقد خرج الشاعر فيها على الذوق العام وذلك بتأثير الجو الصاخب بالخمر والغلمان والرقص، حتى أن الشاعر لم يتوانَ من التصريح بتحقيق بعض المنافع الفاضحة، تلك التي نزهنا البحث عن إيراد النصوص الشعرية الصريحة فيها.

٢- الوصف

طرق الشعراء الأندلسيون غرض الوصف شأنهم شأن المشارقة وضمن هذا الغرض تطالعنا معارضة للشريف الأصم [١١] يعارض فيها المتنبي (ت ٣٥٦هـ). في وصف صورة العدو المهزوم.

فإذا قال المتنبي : (بسيط)

لا تَحْسِبُوا مَنْ أسَرْتُمْ كان ذا رَمَقٍ ... فَلَيْسَ تأكُلُ إلاّ الميتتة [١٢] الضَّبْعُ
وإنّما عَرَّضَ الله الجيوش بكم ... لكي يكُونُوا بلا فَسْلٍ إذا رَجَعوا [١٣]

عارضها الشريف الأصم : (بسيط)

ما لِلْعِدى جُنَّةٌ أوْقى مِنَ الهَرَبِ ... أيْنَ المَفَرُّ وَخَيْلُ الله في الطَّلَبِ ؟
وَأيْنَ يَهْرُبُ مَن في رأس شاهقةٍ ... وَقَدْ رَمَتْهُ سَمَاءُ اللهِ بالشُّهُبِ
لَوْ بُدّلوا قَدَماً زالَت بقادمةٍ ... لأصْبَحَ الكُلُّ طيَّاراً من الرّعبِ
فأبَتْ بالقُرْب مِنْهُمْ وانْقَلَبَتْ ... عن السُّيُوف رياحٌ شرَّ مُنْقَلَبِ
فكانَ سَيفُكَ نَقَّاداً له بَصرٌ ... نفى الزُّيُوفَ وأبقى خالصِ الذَّهبِ[١٤]

لدى الموازنة بين مقطعة الشريف الأصم وقصيدة المتنبي نجد أن المعارضة ناقصة لان الشريف الأصم قد أخل بركنين من أركان المعارضة التامة، الأول حرف الروي، إذْ جاءت الباء رويا لمقطعة الأصم في حين كانت العين روياً لقصيدة المتنبي، الثاني : حركة الروي فهي الكسر عند الأصم والضم عند المتنبي.

وقصيدة المتنبي في مدح سيف الدولة وقد حقق نصراً في إحدى غزواته، وقد شرح البرقوقي البيت الأول بقوله : ((ليس لكم أن تفخروا بهؤلاء الذين أسرتم ولا تظنوهم كان فيهم رمق – بقية حياة – إنما هم أموات من الجبن والخوف، وانتم لخستكم ودناءة نفوسكم لا تقدرون ألا على أمثالهم، كما أن الضبع لا تفترس إلا الجثث الميتة...))[١٥].

واضاف البرقوقي في شرح البيت الثاني : ((إنما عرض الله لكم الجنود الذين انقطعوا عن عسكر سيف الدولة ٠٠٠ وهم الأوباش الذين قتلتموهم ليجرد الله عسكر الإسلام من أمثالهم فيعود إليكم سيف الدولة في الأبطال المنتخبين ليس فيهم فسل ولا دنيء)) [١٦].

أما قصيدة الشريف الأصم فإنها تصوير لمعركة حربية اقتنص الشاعرُ فيها صوراً واقعية لجيش العدو المهزوم، اذ تُرك في حيرة فلا مناص له إلا الهروب، ولكن الى أين ؟ وجيش الممدوح يحكم عليه الطوق، فلا ينفعهم جبل شاهق، لان الله سبحانه وتعالى عليهم بالمرصاد يُسخر الشهب لتحرقهم، ولو خُيّر جيش العدو بأن يُغيّر أقدامه باجنحة طير لفعل وطار هارباً من الواقعة، لان الريح تضافرت مع السيوف وانقلبت على الأعداء.

وكان سيفُ الممدوح بالمرصاد فهو كالصيرفي الذي يميز الذهب الخالص من المزيف، يقطع رؤوس كبار قادتهم وشجعانهم ويترك ضعافهم وجبناءهم.

٣- الأخويات

اعتنى الأندلسيون بغرض الأخويات شانهم شأن المشارقة، وفي هذا الميدان تطالعنا معارضة لأبي محمد بن الفَرس [١٧]. وهو يهنىء القاضي ابا العباس بن الحلال بالبُرء من مرض، وعارض بها المتنبي.

فإذا قال المتنبي : (كامل)

لا تَعذُلِ[١٨] المرض الذي بكَ شائِقٌ　　　أنــتَ الرجــالَ وشــائِقٌ علاتهــا

ومَنــازِلُ الحُمّــى الجسـومُ فَقُـل لنــا ما عـذرها فـي تركهـا خَيْراتِهـا[١٩]

عارضه أبو محمد بن الفَرَس : (متقارب)

تَجَلَّــتْ هُمــومٌ وجَلّــتْ هِمَــمْ وعَـــمَّ نَعـــيمٌ وحَلَّـــتْ نِعَـــمْ
وإنْ صَـحَّ قاضـي القُضـاة اغْتَـدَى صَــحائِحَ مِنّــا مِــراضُ النَّسَــمْ
فمــا خَــصَّ هــذا الأذى جِسْـمُهُ ولكنّـــه عَـــمَّ هــــذي الأُمَـــمْ
وأضْــرَمَ حتــى ضُــلوعَ العُــلا[٢٠] وفَطَّـــر حتـــى فـــؤَاد الكَـــرَم
كـــأنَّ النفـــوسَ لـــه جُنّـــةٌ ومـــا حَـــلَّ إلاّ بِهـــنَّ الألَـــمْ
وأروى بأدْمُعنــــــا أرْضــــــنا فـــأُغنى الغمـــائم أن تنسَـــجِمْ
وإمّـــــا أدَقَّ لنـــــا شَخْصَـــــهُ فمـا أنْفَـكَّ منــه النَـدَى ذا عِظَـمْ
ومـــا أن تُســـاءَ بلـــى إنَّـــه ينــافِسُ فيــكَ الوجــودُ العَــدَمْ[٢١]

لدى الموازنة بين القصيدتين نجد أن المعارضة ناقصة لان أبا محمد بن الفرس قد أخل بركتين من أركان المعارضة التامة، الأول : مخالفته البحر، إذْ نسج على المتقارب في حين نسج المتنبي على الكامل، والثاني : خالفَهُ في حرف الروي، إذ اعتمد أبو محمد بن الفرس حرف الميم روياً، في حين اعتمد المتنبي الهاء روياً.

وقال البرقوقي في بيتي المتنبي : ((لا نلوم المرض الذي ألمَّ بك، لانك أنت تشوق الرجال وتشوق علاتها، يعني إن المرض الذي بك لا يُلام على إلمامه بك، فإنك شوقت الرجال الى زيارتك، وشوقت علاتها أيضا فهي تزورك مثلهم وتنتقل إليك عنهم شوقاً إليك.

ولقد أعجبت الحمى بما رأت فيك من خصال الكرم والشرف فأطالت إقامتها بك لتتأمل أعضاءَكَ المشتملة على تلك الخصال لا لتؤذيك)) [٢٢].

أما قصيدة أبي محمد بن الفرس فإنها تفصح عن استبشار كبير للشاعر ومن حوله من محبي القاضي بتماثل قاضيهم الى الشفاء، فانجلت الهموم وساد النعيم، أما الأذى الذي أصابه فقد آذى الناس من حوله لمكانته الجليلة بينهم. حتى بكته أعينُهم وبَلَّ دمعهم الأرض يوم مَرضه، وهو على ما أصابه من مرض، إلاّ أنَّ ندى كرمه غمر من حوله،

ولفرط حب الشاعر للقاضي فإنه أفرط في المبالغة، حتى أنه جمع فيه النقيضين : الوجود والعدم.

ويلتقي الشاعران في تصوير المرض، فإذا قال المتنبي :

ومنـازل الحمـى الجسوم فقل لنـا ... مـا غـدرها فـي تـرك خيراتهـا

قال أبو محمد بن الفرس :

فمـا خَـصَ هـذا الأذى جسـمه ... ولكنـه عَـمّ هـذي الأمـم

٤- الرثاء

فن قديم عرفه الشعر العربي، إلا أنه يتجدد مع كل مصيبة تصيب الشاعر فيعبر عنها بما تجود به قريحتهُ، ولازم الرثاء شعراء الأندلس شأنهم شأن شعراء المشرق، ونحن في هذا الميدان أمام معارضة أبي محمد بن الفرس في رثاء أبي عبد الله بن الحلال، والد أبي العباس المذكور آنفاً في شعر الأخويات، عارض بها بيتاً لأبي نؤاس (ت١٩٨هـ).

إذا قال أبو نؤاس : (الوافر)

أَبِنْ لي كَيفَ صِرْتَ الى حريمي ... وُجْفنُ الليلِ مكتحِلٌ بنار (٢٣)

عارضه أبو محمد بن الفرس : (وافر)

وَمـا أيَّامُنـا إلاّ مطايـا ... تَخُـبُّ بنـا ومـا تَشْـكُو كَـلاَلاَ
تَسُـوقُ الـى الهـلاكِ ونَحـنُ نَلْهُـو ... كأنّـا قـد عَلْمِنـاهْ مُحـالا

ومنها :

ومـا مَثْـواهُ غَيْـرُ جِنـانِ عَـدْنٍ ... إليهـا أزْمَـعَ اليَـوْمَ انْتِقـالا
ولَـيْسَ مَقَـرُّه فـي حَيْـثَ أَلْقَـى ... عَلَيـهِ التُّـرْبَ دافِنُـهُ ومـالا
لَـزومٌ للمُصَـلَّى والنَّـواهي ... يُجيـد بأثْمِـدِ اللّيـلِ اكتحـالا (٢٤)

لدى الموازنة بين البيت المنتخب (*) في الزاد من رائية لأبي نؤاس وقصيدة أبي محمد بن الفرس، نجد إن المعارضة ناقصة لان أبا محمد بن الفرس قد أخل بأحد أركان المعارضة التامة إذ خالف ابن الفَرَس أبا نؤاس بحرف الروي وجاء بقصيدة لامية خلافاً لحرف الراء وهو روي بيت أبي نؤاس ويتوجه أبو نؤاس الى أحد أصحابه مستفهماً كيف تمّكن ذلك الرجل من الوصول الى حريم أبي نؤاس، والأخطار مُحّدِقة به والنار من حوله في الليل.

أما مرثية أبي محمد بن الفرس فتبدأ بتذكير الإنسان بخاتمة الحياة حيث الموت والهلاك، ثم ينتقل الشاعر الى المرثي ليعدد مناقبه، فهو عنده من أهل الجنة وليس مكاناً آخر، لانه كان في حياته كثير الملازمة للمساجد فضلاً عن التزامه بما نهى الله عنه والإئتمار بما أمر الله به.

وروح المعارضة بيّن بين القصيدة والبيت المنتخب.

فإذا قال أبو نؤاس :

ابن لي كيف صِرْت الى حريمي　　　وجَفْنُ الليل مُكتَحِلٌ بنار

قال أبو محمد بن الفرس :

لَزُوم للمُصلى والنــواهي　　　يُجيدُ بأَثْمِدِ اللّيْلِ اكْتِحالا

٥- الشكوى من فراق الأحبة :

تطالعنا مقطوعة معارضة لأبي زيد السهيلي (ت ٥٨١هـ) عارض فيها بيتاً لشاعرٍ مشرقي من المتقدمين لم نهتدِ الى قائلهِ. ودليلنا على مشرقيته قول أبي بحر صفوان وهو يعلق على مقطوعة السهيلي ((أخذه من قول الأول)) [٢٥].

وإذا قال المشرقي : (طويل)

فَكِلْتاهما ضِدَّان كالثلج منهما　　　على القلب والأخرى أحَرُّ من الجَمْرِ [٢٦]

عارضه أبو زيد السهيلي : (المتقارب)

إذا قُلــتَ يَوْمــاً سَــلامٌ عَلَيْــكَ　　　فَفيهــا شِــفاءٌ وفيهــا سَــقامٌ

حيــــاةٌ إذا قُلتهــــا مُقْـــبِلاً وإن قُلتَهــا مُعْرِضــاً فالحِمَــامُ
فأعْجَــبُ مــن ضِــدّ حاليْهمــا وهــذا سَــلامٌ وهــذا سَــلامٌ (٢٧)

لدى الموازنة بين البيت المنتخب للشاعر المشرقي ومقطوعة أبي زيد السهيلي، نجد أن المعارضة ناقصة، لان أبا زيد السهيلي قد أخل بركنين من أركان المعارضة التامة، الأول : مخالفته في البحر، فإذا ما نسج المشرقي على بحر الطويل فإن أبا زيد السهيلي ينسج على المتقارب، والثاني مخالفته في حرف الروي فإذا جاء المشرقي بالراء روياً أتاه السهيلي بالميم روياً لمقطوعته.

ويتحدث الشاعر المشرقي عن تحية اللقاء (السلام عليكم) وهي ذاتها تحية الوداع والفراق، كلتاهما تحية، لكنهما ضدان، مرة مفرحة تُثلج الصدور باللقاء، ومرة محزنة تثير لواعج الشوق فهي أحر من الجمر.

أما السهيلي في مقطوعته فانه يخاطب حبيبه قائلاً : إذا ما حييتني مقبلاً بـ (السلام عليك)، ففيها شفائي وبرئي، أما إذا حييتني مودعاً بـ (سلام عليك) ففيها علّتي، فالتحية هي حياة إذا قلتها مقبلاً وهي موت إذا قلتها مفارقاً مُدبراً والشاعر يعجب من تحية (سلام عليك) فهي تحمل التضاد السعادة والشقاء بيد أن هذا سلام وهذا سلام.

وروح المعارضة واضحة بَيّن المشرقي والسهيلي – الأندلسي –.

فإذا قال المشرقي :

فكلتاهما ضِدَّانِ كالثلجِ منهما على القَلْب والأُخرَى أحَرُّ مِنَ الجَمْرِ

قال أبو زيد السهيلي :

فاعجبُ من ضِد حاليهما وهذا سَلاّم وهذا سَــلامُ

٦- الغزل العفيف :

لم يبقِ أمامنا في معارضات الأندلسيين للمشارقة سوى مقطوعة واحدة في الغزل العفيف لأبي زيد السهيلي أيضا عارضَ بها شاعراً مشرقياً آخر لم يُصرح باسمه أبو بحر صفوان في الزاد واكتفى بقوله : (وانشِدَ قَوْلَ الأول) [٢٨].

فإذا قال المشرقي : (سريع)

قَدْ أجْمَعَ النـاسُ علـى بُغْـض لا   **وَلَسْـتُ أنسـى أبَـداً حُـبَّ لا**
لأننـي قُلْـت لَـهُ سَـيّدي   **تُحِـبُّ غَيْـري أبـداً ؟ قـال لاَ** [٢٩]

عارضها أبو زيد السهيلي : (كامل)

لمَّـا أَجـابَ بـلا طَمِعْـتُ بوَصْـلِهِ   **إذْ حَـرْفُ لا حَرْفَـان مُعْتَنِقَـانِ**
وكـذا نَعَـمْ بنعـيم وَصْـلٍ آذنـت   **فَـنَعَمْ ولا فـي الحُـبّ مُتفقـانِ** [٣٠]

لدى الموازنة بين المشرقي وأبي زيد السُهيلي نجد المعارضة ناقصة لان أبا زيد السهيلي قد أخل بركنين من أركان المعارضة التامة، الأول : مخالفته البحر الشعري، فإذا ما نسج المشرقي على بحر السريع فإن أبا زيد السهيلي ينسج على بحر الكامل، الثاني : مخالفته لحرف الروي، فإذا التزم المشرقي حرف (الألف) روياً، فان أبا زيد السهيلي يلتزم حرف (النون) روياً.

والشاعر المشرقي في مقطوعته يُفصح عن اجماع الناس على كُرههم لكلمة (لا)، لأنها دالة على الرفض دائماً، وهي مكروهة عندما يسمعها العشاق من أفواه من يحبون، بيد ان الشاعر احتال على هذه الكلمة وحوّل معناها من الرفض الى القبول والإيجاب، عندما تساءل عن مكانته عند حبيبه، بسؤال كان جوابه : الإثبات رغم ورود كلمة (لا) فيه.

أما أبو زيد السهيلي في مقطوعته فكان أطولُ باعاً من صنوه المشرقي، فأفاد الشاعرُ من النظر في الخط العربي، وجعله منطلقاً للتفوق، فهو عندما سمع الجواب بـ (لا) لم ييأس بل كان متفائلاً، لان رسم كلمة (لا) متركب من حرفين، الأول : اللام

والثاني : الألف وهما متعانقان، عند ذاك تفاعل الشاعرُ بعناقهما استبشاراً بالوصل وعناق الحبيب، كما تعانق حرفاً كلمة (لا) عند الرسم.

وزاد السهيلي على المشرقي معنى في البيت الثاني، عندما تفاعَل بكلمة (نَعَمْ) فهي قريبة الرسم من نعيم، والنعيم لا يزول، لذا فإن (نَعَمْ) و (لا) عنده سيان في الحبُ وكلاهما نَعَمْ.

٧- الغزل بالغلمان

عرف المشرق هذا الفن وازدهر إزدهاراً كبيراً فيه، وانتقل الى الأندلس ولاقى رواجاً كبيراً أيضاً نتيجة لحياة الترف التي عاشها المجتمع الأندلسي، ولم نلحظ سوى مقطوعة واحدة في كتاب الزاد لأبي العَبَّاس بن حنون الاشبيلي[٣١] عارض فيها الشاعر المغربي ابن المُغيري[٣٢] من (بجاية)[٣٣]، وهذه المعارضة هي الوحيدة التي تمثل معارضة الأندلسيين للمغاربة كما أسلفنا.

فإذا قال الشاعرُ المغربي ابن المغيري : (مخلع البسيط)

قالوا بـهِ صُـفْرَةٌ فقلنا لا ومُـدامٍ بِمَرْشِـفَيْهِ
بَـلْ أنْتَ لمّا دَنَّوْتَ مِنْهُ أرْعِبْتَ مِن سَيْفِ مُقْلَتَيْهِ
وَجْهَكَ لا شَكَّ يا جَهولاً أبْصَرْتَ في ماء وجنتيهِ [٣٤]

عارضه الشاعر الأندلسي أبو العَبّاس بن حَنّون الاشبيلي : (كامل)

يا مَنْ رَمَاهُ الى المَشُوقِ بصُفْرةٍ إخْسَأْ بِجَهلِكَ إنَّهُ لَمْ يُلْهِهِ
ما أَنْتَ إلاّ رَوَّعَتْكَ جُفُونُهُ فَرَأَيْتَ وَجْهَكَ في نَضَارَةِ وَجْهِهِ[٣٥]

لدى الموازنة بين المقطعتين نجد أن المعارضة ناقصة لان أبا العَبَّاس بن حنون الاشبيلي قد أخلَّ بأحد أركان المعارضة التامة وهو مخالفة البحر الشعري، فإذا ما نسجَ ابن المغيري على المخلع البسيط فإن أبا العباس بن حنون ينسح على الكامل.

وابن المُغيري في مقطوعته يدافع عن وسامة وجمال غلامه معتمداً أسلوب الحوار القصصي، إذ يقول : قالوا به صفرة وكان جوابه بالنفي، قُلت : لا مسوغاً ذلك اللون بلون الخمرة على شفتيه، ويستدرك في البيتين الثاني والثالث على التسويغ الأول الذي قدّمه ليقدم تسويغاً آخر متهماً الآخر بوجود الصفرة في وجهه، وهي ليست في وجه الغلام، ودليله ان من يقترب من الغلام يُصاب برهبة يُرهبه حاجباه فهما كسيفين صارمين، ووجه الغلام نَضِرٌ كالمرآة، فالناظر فيه يرى فيه صورة صفرته – لانه خائف، فالصفرة لون الناظر وليست لوناً للغلام.

أما الشاعر الأندلسي أبو العَبَّاس بن حَنّون فهو في مقطوعته يتغزل بالغلمان أيضاً ويدافع عن وسامة الغلام وجماله بذات الأعذار التي قدّمها سَلَفهُ المغربي – ابن المُغيري – إلا أن معالجته كانت مختلفة فهو يكثّف المعنى في بيتين، ويحيد عن أسلوب الحوار القصصي عند سلفه، ويعتمد على أسلوبي النداء والقصر.

ويتفق الشاعران في رؤيتهما في النظر إلى وجه الغلام فهما لا يريان صُفرةً به كما يُزعم، إنما الصُفرة تكون في وجه الناظر اليه، لان الأخير يكون في رهبة وخوف فيرى وجهه في وجه الغلام النضر كالمرآة، والشاعر الأندلسي أوفر حظاً من صنوه المغربي، لانه تمكن من تكثيف المعنى.

الخاتمة والنتائج

بعد تقصٍ للشعراء الأندلسيين ممن عارضوا المشارقة والمغاربة في كتاب زاد المسافر لأبي بحر صفوان، يجدر بنا ان نُسَجِل أهم النتائج :

١. إن المعارضة الشعرية ضاربة الجذور قبل عصر أبي بحر صفوان – دولة الموحدين – فقد عرفت في الأندلس والمشرق والمغرب منذ زمنٍ بعيد يرجع الى عصور الشعر العربي الأولى.

٢. خضعت معارضة الشعراء الأندلسيين للمشارقة لنزعة الإعجاب والتقليد في حين غذى دافع المنافسة معارضة الأندلسيين للمغاربة.

٣. غاب الشعر النسوي عن معارضة الاندلسين للمشارقة والمغاربة وهو يبيّن موقفاً سلبياً وقفه المصنف أبو بحر صفوان في الزاد من المرأة الأندلسية.

٤. تبيّن أن اتجاه معارضة الأندلسيين للمشارقة والمغاربة اقل من نظيره معارضة الأندلسيين فيما بينهم.

٥. بلغ نصيب معارضة الأندلسيين للمشارقة والمغاربة سبع معارضات ناقصة ست منها معارضة للمشارقة وواحدة للمغاربة، وبذلك يُلحظ غياب المعارضة التامة ضمن هذا الأتجاه، فضلاً عن ذلك فأن معارضة الأندلسيين للمغاربة لم تشكل اتجاهاً ذا بالٍ في كتاب زاد المسافر، إذا ما قيس بالاتجاهين السابقين معارضة الأندلسيين فيما بينهم ومعارضة الأندلسيين للمشارقة، اذ اقتصر هذا الاتجاه على معارضة واحدة – كما ذكرنا آنفاً – لابي العباس بن حَنّون عارض بها شاعراً مغربياً هو ابن المُغيري.

٦. طرق شعراء هذا الاتجاه – الأندلسيون المعارضون للمشارقة والمغاربة – أغراضا شعرية مألوفة هي : الخمرة والمجون والوصف والأخويات والرثاء والشكوى من فراق الأحبة، والغزل العفيف والغزل بالغلمان.

٧. اقتصر الغزل بالغلمان على معارضة الأندلسيين للمغاربة، في حين كانت بقية الأغراض من نصيب معارضة الأندلسيين للمشارقة، والغزل بالغلمان يعطي دليلاً واضحاً على حياة الترف التي وصلها المجتمع الأندلسي.

٨. نظم شعراء هذا الاتجاه في خمسة بحور هي (الكامل، والوافر، والمتقارب، والبسيط، والمنسرح) وكانت جميعها من البحور الطويلة الهادئة.

٩. تكرر اعتماد بحر الكامل مرتين ضمن شعراء هذا الاتجاه، في حين كان نصيب البحور الأخرى المتبقية مرة واحدة لكل معارضة.

١٠. تنوعت العصور الأدبية للشعراء المشارقة الذين عارضهم الأندلسيون، فكان الاشتر النخعي من العصر الإسلامي، والمتنبي وأبو نؤاس من العصر العباسي، إلا أن

المتنبي كان قدحَهُ مُعلى بين لداته المشارقة عندما تكررت معارضَتَهُ، : إذ عارضه الشريف الأصم وأبو محمد بن الفرس، بينما قابل العصر العباسي في المشرق زمان الشاعر المغربي – ابن المغيري، الذي عارضَه أبو العَبَّاس بن حَنّون.

الهوامــش

(*) تناولت في بحث سابق معارضات الشعراء الأندلسيين فيما بينهم في كتاب زاد المسافر لأبي بحر صفوان وكتاب زاد المسافر كتاب في الاختيارات الشعرية الأندلسية ألفه أبو بحر صفوان في القرن السادس الهجري.

٠١ لسان العرب : مادة (عَرضَ) لابن منظور المصري الأفريقي (ت ٧١١هـ) طبعة دار صادر بيروت ١٩٥٦.

٠٢ تأريخ النقائض في الشعر العربي : ٧ احمد الشايب، مكتبة النهضة المصرية، مطبعة السعادة، ط٢، القاهرة ١٩٥٤ م.

٠٣ اللاستزادة ينظر : عصر سلاطين المماليك ونتاجه العلمي والأدبي : ٤٧٧/٨ د. محمود رزق سليم، مكتبة الآداب بالقاهرة ومطبعتها بالجماير، ط١، ١٩٦٥م. وتأريخ المعارضات في الشعر العربي : ١٣ د. محمد محمود قاسم نوفل، مؤسسة الرسالة دار الفرقان، بيروت، ط١ (١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م) والمعجم الأدبي : ٢٥٤-٢٥٥، جَبّور عبد النّور، ط١ بيروت ١٩٧٩ ومجلة كلية الآداب / جامعة بغداد ع (٢٣) لسنة ١٩٧٨ وفيها بحث د. أمين علي سعيد الموسوم : الشاعر أبو اسحق الأطعمة ومعارضاته الشعرية : ٤٤٣ و تأريخ الأدب العربي (الأدب العربي في المغرب والأندلس الى آخر عصر الطوائف) : ٧٨/٤ د. عمر فروخ ط١، بيروت ١٩٨١وتأريخ الأدب الأندلسي، عصر سيادة قرطبة : ٢٠٢ د. إحسان عباس ط٦، بيروت ١٩٨١م. والمعارضات في الشعر الأندلسي في القرنين الخامس والسادس الهجريين : ٦٤ يونس طركي سلوم البّجاري، رسالة ماجستير كلية الآداب جامعة الموصل ١٩٨٨م.

٠٤ ينظر المعارضات في الشعر الأندلسي : ٦٤.

٠٥ لم اهتد الى تاريخ وفاته، بيد انَّه ومعيته من شعراء زاد المسافر هم من شعراء الدولة الموحدية التي حكمت الأندلس للمدة من (٥٤٢هـ-٦٤٦هـ).

٠٦ وردت (العُلى) والصواب ما أثبتناه.

٠٧ وردت في ديوان الحماسة (على ابن حرب)، كما ورد اختلاف في رواية عجز البيت.

٠٨ ديوان الحماسة : ٥٠-٥١ لأبي تمام حبيب بن اوس الطائي (ت ٢٣١هـ) برواية أبي منصور موهوب بن احمد بن محمد بن الخضر الجواليقي (ت ٥٤٠هـ) تحقيق الدكتور عبد المنعم احمد صالح دار الرشيد، منشورات وزارة الثقافة والأعلام ١٩٨٥. وينظر زاد المسافر : ٧٩.

٠٩ اسقط الشعر لان الذوق يأنفه.

٠١٠ اسقط البيت الشعري لان الذوق يأنفه أيضاً، ينظر زاد المسافر : ٧٨-٧٩.

٠١١ لم اهتدِ الى تأريخ وفاته.

٠١٢ وردت في الديوان (الميت).

٠١٣ شرح ديوان المتنبي : ٢/٣٣٩-٣٤٠، وضعه عبد الرحمن البرقوقي، الناشر دار الكتاب العربي، بيروت لبنان، ط١ ١٩٣٨ /، تحقيق وطبع اوفست كونرو غرافير – بيروت، وينظر زاد المسافر : ١٢٧.

٠١٤ زاد المسافر : ١٢٧.

٠١٥ شرح ديوان المتنبي : ٢/٣٣٩.

٠١٦ م. ن : ٢/٣٤٠.

٠١٧ لم اهتدِ الى وفاته، لكن عبد القادر محداد، الذي اعد كتاب زاد المسافر وعلق عليه، قال في الهامش ٤ من ص ١٤٩، عن ابن الفرس ما نصهُ : ((لعله أبو عبد الله المذكور في التكملة لابن الابار وكان استوطن مرسية وولي بها خطة الشورى من قبل القاضي أبي العباس بن الحلال وتوفي بأشبيلية في شوال ٥٦٧هـ ٠٠٠)).

٠١٨ وردت في الديوان (لا نعذل).

٠١٩ شرح ديوان المتنبي : ١/٣٥٦ وينظر زاد المسافر : ١٥٠.

٠٢٠ وردت العُلى والصواب ما أثبتناه.

٢١. زاد المسافر : ١٤٩-١٥٠.

٢٢. شرح ديوان المتنبي : ٣٥٦/١.

٢٣. لم يحوِ البيت ديوان أبي نؤاس برواية الصولي، تحقيق الدكتور بهجت عبد الغفور الحديثي، ساعدت جامعة بغداد على طبعه ١٩٨٠. وكذلك لم أجده في الديوان بالطبعة الأخرى : ديوان ابي نؤاس بتحقيق وضبط وشرح احمد عبد المجيد العزي، الناشر، دار الكتاب العربي، بيروت لبنان. د.ت.

وينظر زاد المسافر : ١٥٠.

٢٤. زاد المسافر : ١٥٠.

(*) رُب معترضٍ يعترض كيف يتسنى أن تقام موازنة بين بيت شعري واحد لأبي نؤاس مع قصيدة لأبي محمد بن الفرس ؟ والجواب عن ذلك يكون : لا مفر للباحث لانه يتناول المعارضات الشعرية في كتاب زاد المسافر، وهو كتاب اختيارات، فلا حرية له في التزيد على المصنف في اختياراته، إنما يورد النماذج كما هي في مصدرها.

٢٥. من خلال رصدي لتعليقات أبي بحر صفوان في كتابه الزاد، اهتديت الى أن كل ما ورد بذكر الأول، فالمقصود به الشاعر المشرقي، وينظر زاد المسافر : ١٣٩.

٢٦. زاد المسافر : ١٣٩.

٢٧. م. ن : ١٣٩

٢٨. م.ن : ١٣٩.

٢٩. م. ن : الصفحة نفسها.

٣٠. م.ن : ١٤٠.

٣١. لم أهتدِ الى تأريخ وفاته.

٣٢. لم أهتدِ الى تاريخ وفاته.

٣٣. مدينة في الجزائر، ينظر الروض المعطار في خبر الأقطار – معجم جغرافي مع مسرد عام : ٨٠-٨١ تأليف محمد بن عبد المنعم الحميري (ت ٩٠٠هـ)، تحقيق د. إحسان عباس، مكتبة لبنان بيروت طبع دار القلم بيروت ١٩٧٥م.

٠٣٤ زاد المسافر : ٩٣.

٠٣٥ م. ن : ٩٣.

المصادر والمراجع

١. تاريخ الأدب الأندلسي عصر سيادة قرطبة، د. إحسان عباس، ط٦ بيروت ١٩٨١.
٢. تاريخ الأدب العربي (الأدب العربي في المغرب والأندلس الى آخر عصر الطوائف) الجزء الرابع. د. عمر فروخ ط١ بيروت ١٩٨١.
٣. تاريخ المعارضات في الشعر العربي، محمد محمود قاسم نوفل، مؤسسة الرسالة دار الفرقان، بيروت، ط١ (١٤٠٣/ ١٩٨٣م).
٤. تاريخ النقائض في الشعر العربي، احمد الشايب، مكتبة النهضة المصرية، مطبعة السعادة، ط٢ القاهرة ١٩٥٤.
٥. ديوان الحماسة لأبي تمام حبيب بن اوس الطائي (ت ٢٣١هـ) برواية أبي منصور موهوب بن احمد بن محمد بن الخضر الجواليقي (ت ٥٤٠هـ) تحقيق الدكتور عبد المنعم احمد صالح دار الرشيد، منشورات وزارة الثقافة والاعلام ١٩٨٥.
٦. الروض المعطار في خبر الأقطار – معجم جغرافي مع مسرد عام – تأليف محمد بن عبد المنعم الحميري (ت ٩٠٠هـ) تحقيق د. إحسان عباس، مكتبة لبنان بيروت طبع دار القلم بيروت ١٩٧٥.
٧. زاد المسافر وغرة محيا الأدب السافر لأبي بحر صفوان التجيبي المرسي (ت ٥٩٨هـ) (اشعار الأندلسيين من عصر الدولة الموحدية) إعداد وتعليق عبد القادر محداد دار الرائد العربي بيروت لبنان ١٩٨٠.
٨. شرح ديوان المتنبي، وضعه عبد الرحمن البرقوقي، الناشر دار الكتاب العربي بيروت لبنان، ط١ ١٩٣٨، تحقيق وطبع اوفسيت كونرو غرافير – بيروت.
٩. عصر سلاطين المماليك ونتاجه العلمي والأدبي الجزء الثامن. د. محمود رزق سليم، مكتبة الآداب بالقاهرة ومطبعتها بالجماهير، ط١، ١٩٦٥.

١٠. لسان العرب لابن منظور المصري الأفريقي (ت ٧١١هـ) طبعة دار صادر بيروت ١٩٥٦.
١١. مجلة كلية الآداب / جامعة بغداد ع (٢٣) لسنة ١٩٧٨ وفيها بحث د. أمين علي سعيد الموسوم : الشاعر أبو اسحق الأطعمة ومعارضاته الشعرية.
١٢. المعارضات في الشعر الأندلسي في القرنين الخامس والسادس الهجريين، يونس طركي سلوم البجاري، رسالة ماجستير، كلية الآداب، جامعة الموصل ١٩٨٨.
١٣. المعجم الادبي، جبّور عبد النور، ط١ بيروت ١٩٧٩.

ABSTRACT

The study accounts for the concept of intertextuality linguistically and terminologically. It studies the Andalusi poets who intertextualized those in the east and those in North Africa in a number of poetic purposes such as wine, description, complaining of time, separation from beloved and flirtation. The intertextuality of the Andalusians for those in North Africa was represented by one poet only in one poetic purpose namely, flirtation of children. The study ends with a conclusion that summarizes the most important results.